خلق الإنسان في ميزان القرآن

بقلم الدكتور:
محمد أحمد العزب

خلق (الانسان) فى ميزان القرآن :

وحين يتمرد (الانسان) على خالقه ، وهو ذرة من ذرات كون معجزة يموج بملايين الذرات والجزئيات ، يسجل القرآن الكريم عليه هذا التمرد الطائش بكل ألوانه ورواياه .

فمن تمرد نفسي يتمثل فى ضراعة الانسان فى الشدة وتمرده فى الرخاء ، ومسرته فى العطاء وكفره فى المنع ..

إلى تمرد مزق يلوح فى بطر الانسان فى النعمة وبأسه فى الحرمان

الى تمرد مغلق يتجسد فى طمس الانسان لبصيرة الوعى فيه بكل ما حوله من مفاتن الطبيعة وآلاء الوجود ..

الى تمرد جاهل يتبدى فى عجز الانسان عن الاحاطة بكلية الظاهرة الحيوية ، وانحصاره فى واقع التفكير المادى الذى يعينه دون الاقتدار على التحليق المطلوب الى ما وراء هذا الواقع المادى

ولكن القرآن الكريم لا يكتفى فى حديثه عن الانسان متمردا بلفظ (الانسان) بمجرد تسجيل ظواهر التمرد الانسانى ، وانما يحاول أن يقتلع جذور هذه الظواهر ، حتى يعود بالانسان الى أوج انسانيته الصافية المرادة لخالقها ، فيلفته فى مواطن كثيرة الى سذاجة عناصره ، طينية كانت لم نطفية ، فهو فى اطار العنصر الطينى قبضة من الأرض التى تدوسها قدماه ، منها خلق ، وفيها يعاد ، ومنها يخلق تارة أخرى .. وهو فى إطار العنصر النطفى ، كائن متخلف من منى يمنى .. فعلام التمرد ؟ ولماذا الانقلاب ؟!

الخالقية والمخلوقية :

إن حديث القرآن عن الانسان من هذه الوجهة لا يعنى تحقيره أو تشويه صورته ، وإن بدا حديثا قارسا بعض الشيء ، ولافحا بعض الشيء .. لان لفت الانسان الى طبيعة عناصره الأولية الساذجة ، طينية ونطفية ، يتم فى القرآن الكريم من خلال الحديث عن (الخالقية) و (المخلوقية) ، وما يجب أن يربط بينهما من علاقات إقرار المخلوق للخالق ، وإذعان (الانسان) (لله) .. لا أن يتمرد هذا الانسان على قضية القضاء والقدر باليأس والكفر والبطر والتجديف ، أو على قضية (المخلوقية لله) بالمواجهة والنفر والمصادرة والتكذيب .. فان هو فعل فى لوثة نسيانه أو اغتراره .. كان من حق كلمات الله الخالق ان تقفه على حجمه الحقيقى ، وان تذكره بأنه لن يستطيع ان يكون سوى طين من الطين ، او علق متحتر يمكن ان يجهض على قارعة الطريق :

«ولقد خلقنا الانسان من صلصال من حما مسنون» (الحجر : ٢٦) .

«ولقد خلقنا الانسان من سلالة من طين» . (المؤمنون : ١٢) .

«الذى احسن كل شيء خلقه وبدأ خلق الانسان من طين» (السجدة : ٧) .

«خلق الانسان من صلصال كالفخار» (الرحمن : ١٤) .

«خلق الانسان من نطفة فاذا هو خصيم مبين» (النحل ٤) .

«أولم ير الانسان انا خلقناه من نطفة فاذا هو خصيم مبين» (يس : ٧٧) .

«انا خلقنا الانسان من نطفة امشاج نبتليه فجعلناه سميعا بصيرا» (الانسان : ٢) .

«فلينظر الانسان مم خلق . خلق من ماء دافق . يخرج من بين الصلب والترائب . انه على رجعه لقادر . يوم تبلى السرائر . فما له من قوة ولا ناصر» (الطارق : ٥ ـ ١٠) .

«خلق الانسان من علق» (العلق : ٢) .

والمتأمل لآيات الخلق من طين يلاحظ انها وردت فى سياق التدليل على قدرة الخالق وروعته . فهى محطوطة بحس الاعجاز والابداع ... ولكن سياق الآيات الأخرى الدالة على الخلق من نطفة يوحى بحس التهوين من كبرياء هذا المخلوق المزق .. إن فى الأولى انتصافا لكرامة الانسان السوى ، وفى الثانية كبحا لجماح هذا الانسان حين يفقد سواءه ، والسياق القرآنى العظيم يضع كلا من هاتين القضيتين موضعه الموحى المثير ، فهو فى آيات الخلق من طين يقارن بين طبيعة الانسان وطبيعة الشيطان ، ويدلل بأن هذا الخلق وإن كان من عنصر أرضى متواضع إلا انه آية اعجازه وروعة إتقانه ، يؤكد بأن الذى استطاع أن يخلق هذا الكائن العظيم من هذا العنصر المتواضع قادر على أن يحييه بعد الموت ، ويبعثه من جديد ، ويشئه النشأة الأخرى ولكنه فى آيات الخلق من نطفة يتوجه الى الانسان نفسه أساسا